

دمية القصر

قلت : هذا كلام في القلة دون القلة وإنما أثبت لقدر الممدوح لا المادح . ولمثل ذلك القدر جر الرماح على السِّمَّامِ الرماح .
كامل المُنْتَفَقِيَّ .

لما وطئت البصرة في جملة عميد الحضرة أبي سعد حمزة بن منصور أدام [أ] أيامه ماجت إلينا البادية وانثالت وفودها على تلك الرِّيَّاع كما تنثالُ أعراف الضِّبَّاع . فوجَّهَ بعضهم سُفراءَ إلى الخفراء يستودعهم الشُّعْثُ الغبر من الحُجَّاج السالكين لذلك المنهاج المترادفين فريقاً بعد فريق الآتين من كل فج عميق . وارتبط البعض في غمار المرتزقة من الجنود أو المرتفعة من الوفود فبيننا أنا يوماً بين يديه إذا دخل هذا المنتفقي عليه وشكا إليه سنة أرست عليه الكلاكل وأثكلته الكُوم البوازل وأركبت إليه النوازل . ثم وصف له الأمل الذي ركب إليه مطاه والسَّهَر في السفر الذي نغص بسراه النوم على قطاه . فأوسعه تأهيلاً وترحيباً وأوطأه من ذراه كنفاً رحيباً . فكان من جملة مفاوضات عميد الحضرة إيَّاه أن قال له : قد عم علينا هذا الهراء الذي اصطلينا منه ناراً حامية لم تبق للعيس منسماً ولا للخيل حامية فهل لكم في آن نطنزَّ بِـ الخيام بجواركم ونقرط الآذان بجواركم ونواردكم على نطف الأداوى ونرزَّحَ معكم على أغاريد حفيف الرياح نشاوى . فقال : كرامةً لمولانا . ولو استطعنا لنثرنا عليه الأرواح على مرادك وفرشنا الخدود تحت نعال جياذك ولي في خدمة أمثالك من الكُبراء عادة ولك عندي على الحُسنَى زيادة فقال عميدُ الحضرة : وما هي قال شقيقة لي كأنها فلقة قمرٍ أجيبك إليها لتبني عليها فصدقت رغبتهُ والتهبت شهوته وركب من الغد إلى حلَّتَه بعسفان وهي رملةٌ ميثاءٌ خالية الجنبات بزرابيِّ مبنوثةٍ من النِّبَّاتِ وتتنزَّفسُ أبرادها عن نسيم يطير بجناح الهوى ويُجاذب بحسن المس أهداب الرِّداء . فإذا فيه من بين سائر قباب الحيِّ تُنسبُ أرآنا في قصدها إلى الغيِّ وتشهدُ أنا قد تركنا الرأي بالريِّ لما نسجتها من دبور الأدبار وركبتها من غواشي الغُبار وما بها إلا كلابٌ تلغ في أسار القِعَاب أو تتممضُ من الطُّرُّاق بالعراقيب والكعاب وما من قعبٍ إلا وهو أشدُّ عيمة منا إلى الألبان وما من جفنةٍ إلا ولها جراحة على اللِّبَّان فحاجتها إلى الزَّائب كحاجتنا إلى الرائب . وفي أحد جوانب البيت عجوز في الغابرين تقدي بطلعتها الشوواء عيون الحاضرين قد تركها الانحناء محطوطة المناكب وكأن بنواصيها غزول العناكب فأنشدت عميد الحضرة مُعاباً :
يا ليتني حين خرجت خاطبا .

لَقَّانِيَّ اِطْرِيْقًا شَاطِبًا .
لَا اَمَمًا مَذِيَّي وَلَا مُقَارِبًا .
حَتَّى إِذَا مَا سَرْتُ شَهْرًا دَائِبًا .
ضَلَّ بَعِيْرِي وَرَجَعْتُ خَائِبًا .

ثم قلت له : أبصر فلقة القمر التي وعدتها فبهت أولاً حتى كلت نوافده واستغرب ثانياً حتى استهلت نواجذه وحلف عليه كامل لينزلن فأبي وجاءه من ناحية الذل فنبا واعتل عليه بمعاذير رخصت له في سرعة الانصراف وحببت إليه الرضا من الغنمة بالإباب . ولكامل هذا شعر بدوي وصيت له بين الشعراء دوي . فما علق بحفظي من مترنماته قوله من قصيدة أولها :

إِنْسَانَةٌ الْحَيِّ أُمُّ أُدْمَانَةَ السُّمْرِ ... بِالذَّهِي رَقَّ مَهَاهَا لِحْنٌ مِنَ الْوَتْرِ .
يَا مَا أَمَّيْلِحَ غَزْلَانًا شَدَنَّا لَنَا ... مِنْ هَوْلَيْئَا نَيْكُنَّ الصَّالِ وَالسُّمْرِ .
بَا يَا طَبِيَّاتِ الْقَاعِ قُلْنَ لَنَا : ... لَيْلِي مَنَكْنَّ أُمُّ لَيْلَى مِنَ الْبَشْرِ .
قلت : الإبهام في الشعر صنة لا يتوصل إليها الحضريون إلا بتعريق جبين الخاطر وبعثرة دفين الضمائر . وقد أخذ هذا البدوي من عفو خاطره نوعاً من الإبهام تنبو عنه صوارم الأفهام وذلك قوله :

بِالذَّهِي رَقَّ مَهَاهَا لِحْنٌ مِنَ الْوَتْرِ .

فإن لحن الوتر الذي يضربه اللاهي للإنس مرقص ولحن الوتر الذي ينزعه الرامي للوحش مقمص . وما أشبه ذلك الترقيص بهذا التقميص !

الوائلي